علي حيدر*

ما العمل الآن؟ لدوف حنين وداني فيلك
عن المشروع الاشتراكي الديمقراطي كبديل للتغيير في إسرائيل

عنوان الكتاب: ما العمل الآن؟[1]
المؤلفان: دوف حنين وداني فيلك
دار النشر: عليات هغاغ (السدّة)، ريشون لتسيون
سنة الإصدار: ٢٠١٩
عدد الصفحات: ٣٤٣

تبدأ مقدمة الكتاب «**ما العمل الآن؟**» التي تحمل العنوان «**إضاءة النور في الأيام المظلمة**» بالتأكيد على كونه كتابًا متفائلا، ولكنه موجه أيضا للمتشائمين، وكذلك على أن التفاؤل الذي يبثه الكتاب لا ينبع من سذاجة ولا يعد بفردوس البُلهاء، فالكاتبان يعيان دراماتيكية القرن الواحد والعشرين ومخاطره الكثيرة.

قبل استعراض الأسئلة المركزية التي يطرحها الكتاب، وكيفية معالجتها، وعرض مبناه وفصوله وادعاءاته المركزية ونقدنا لبعض الطروحات، من الجدير بالذكر والإشارة والتعريف بالمؤلفين؛ فالدكتور دوف حنين هو حقوقي وناشط سياسي واجتماعي وبيئي، قبل وصوله الكنيست من قبل الجبهة الديمقراطية عام ٢٠٠٦. أشغل منصب رئيس منظمة جمعيات البيئة في إسرائيل. تنافس على منصب رئيس بلدية تل أبيب عام ٢٠٠٨ وأنهى عضويته في الكنيست عام ٢٠١٩.

يعتبر حنين من أكثر أعضاء الكنيست نشاطا في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والبيئية...الخ، وقد حظي بعدة أوسمة وجوائز، ومنذ إنهاء عمله في الكنيست يعمل على التغيير من

١ اسم الكتاب شبيه باسم كتاب صغير للينين أصدره عام ١٩٠٢ وفيه شرح رؤيته لكيفية التنظم والعمل، بعد ذلك بسنة شكل الكتاب مرجعية للبلشفيين، وبداية الحزب الشيوعي الروسي.

* محامٍ، وناشط سياسي.

الغلاف.

خلال الميدان. من بين الكتب التي ألّفها كتاب العولمة وكتاب مكان للإصلاح (مع بروفسور أرييه أرنون).

أما بروفسور داني فيلك فهو طبيب ومحاضر في السياسة والحكم في جامعة بن غوريون، ناشط اجتماعي وباحث في المجتمع الإسرائيلي وجهاز الصحة. من مؤسسي حركة «نقف معا». شغل منصب رئيس إدارة جمعية أطباء من أجل حقوق الإنسان، وعضو في مركز «ادفا– مساواة وعدل اجتماعي في إسرائيل»، ومن بين الكتب التي ألفها حكم الثروة (مع بروفسور اوري رام)، شعبوية وهيمنة في إسرائيل، و السياسة في الرسوم الهزلية.

يشتمل الكتاب على مقدمة وخاتمة و– ١٢ فصلا، وهي كالتالي: ١) لماذا ممكن ولماذا يجب إحداث تغيير؟ ٢) صعود اليمين المتطرف٣ ومخاطره) الاستدامة والاشتراكية: أين أخطأنا وماذا تعلمنا؟ ٤)ديمقراطية اشتراكية في القرن الواحد والعشرين ٥) من المقاومة إلى التغيير: التوجهات المختلفة للتعاطي مع النظام الاجتماعي ٦) تجارب إسرائيلية: ممكن فعل ذلك عندنا أيضا ٧)إحداث تغيير في واقع صراع قومي ٨) مكان للكل: رؤيا ممكنة ٩) الانطلاق ١٠) الطريق لحركة تغيير ١١)عشرة أمور يجب عملها من أجل التأثير ١٢) مميزات لإسرائيل أفضل. وقد ذيل الكتاب بقائمة تشمل مصادر إضافية مقترحة للقراءة، والمصادر التي ذكرت في فصول الكتاب.

أما بخصوص التأليف المشترك، وهو أمر معقّد، فيشار إلى أن كل واحد من المؤلفين كتب أجزاء من الكتاب بمفرده، وشارك مع زميله في كتابة الأجزاء الأخرى، مع التأكيد على اتفاقهما على كل ما جاء في الكتاب.

السؤال المركزي الذي يطرحه الكتاب هو: هل من الممكن الحديث عن تغيير للأفضل في العالم الاجتماعي الذي تظهر به تغييرات سلبية مقلقة؟ ويجيب المؤلفان على هذا السؤال بالإيجاب.

يدعي المؤلفان بأنهما لا يتجاهلان المخاطر الموجودة، ولا يقللان من أهميتها وقوتها، ولكن إلى جانب هذه المخاطر والتهديدات توجد مداخل لتغيير للأفضل. ويصرحان بأنه «سوف يتم التمكن من إحداث التغيير في حال عرفنا تحليل الوضع بشكل صحيح، وأشرنا بناءً على هذا التحليل إلى إستراتيجية تغيير. ولذلك يهدف الكتاب ليس إلى وضع رؤيا للتغيير الإيجابي، وإنما إلى رسم معالم الطريق، وبلورة خطة عمل من أجل إنجاز ذلك فعليا».

صدر هذا الكتاب في الفترة الواقعة بين انتخابات الكنيست التي جرت في نيسان ٢٠١٩ [٢] وانتخابات الكنيست المُعادة في شهر أيلول من السنة نفسها. ويشير المؤلفان إلى أنه من أجل الفوز في الانتخابات، لم يتوان نتنياهو عن استخدام أي وسيلة، مثل إدارة حملة انتخابية كاملة تمحورت حول أفكار الكاهانية والتحريض، فخطاب الليكود ينافس خطابات الأحزاب اليمينية المتطرفة في أوروبا. وقد حامت حول الليكود خلال فترة الانتخابات أحزاب يمينية متطرفة جدا مثل: زهوت، اليمين الجديد، يسرائيل بيتينو، هبايت هيهودي، هأيحود هلؤمي، عوتسماه يهوديت. وكما في عام ٢٠١٥،[٣] فقد شعر الكثير من الناس بيأس.

وفي هذا الكتاب يتعرض المؤلفان للواقع من جانب آخر؛ لا يتجاهلان المخاطر المنوطة باستعداء المواطنين العرب، ولا بالتهديدات ولا بتقليص إضافي للحيز الديمقراطي، ويعيان أن الهبات التي يحصل عليها أصحاب رؤوس الأموال تأتي على

٢ جرت الانتخابات للكنيست الواحدة والعشرين في تاريخ ٩ نيسان ٢٠١٩ وقد تغلب بها معسكر اليمين على معسكر المركز واليسار بفارق قليل من المقاعد الشيء الذي صعب على نتنياهو الذي كلف بتشكيل الحكومة تشكيلها، الأمر الذي دفعه الى حل الكنيست والاعلان عن انتخابات جديدة للكنيست الثانية والعشرين أُجريت في ١٧ من أيلول ٢٠١٩.

٣ في عام ٢٠١٥ أجريت انتخابات للكنيست العشرين وفاز فيها معسكر اليمين.

يدعي المؤلفان أن انتخاب دونالد ترامب لرئاسة الولايات المتحدة عام ٢٠١٦ لم يكن إلا تعبيرا دراماتيكيا عن توجه عالمي متواصل وواسع في صلبه رسوخ قوة اليمين الجديد، العنيف والعدواني، في عدد من الدول، مثل أميركا وروسيا والبرازيل وتركيا والهند وهنغاريا وبولندا. وفي الدول التي لا يحكم فيها اليمين المتطرف بعد، فهو آخذ في زيادة قوته، ويشكل تهديدا حقيقيا للحكم.

حساب المواطنين. ويعي المؤلفان المخاطر المنوطة بتفضيل مشروع الاستيطان على تبني سياسات شجاعة من أجل التقدم نحو السلام مع الفلسطينيين والدول في المنطقة.

يؤكد المؤلفان أنه على الرغم من وعيهما بكل المخاطر، إلا أن اليأس ليس الجواب الصحيح، لأن اليأس هو المتكأ الجيد للوضع القائم، وهو الحليف الأمين للسوء الذي يتحول إلى سياسات.

يقول الكاتبان إن انتخابات ٢٠١٩ لم تكن في الحقيقة صراعا بين طريقين متناقضين، بل أديرت الانتخابات في الأساس حول شخصية نتنياهو: صراع بين من يرونه مناسبا وبين من يرونه فاسدا ومستعدا لحرق الأخضر واليابس من أجل بقائه الشخصي. فالأولون صوتوا ودعموا نتنياهو والأحزاب التي تدور في فلكه، بينما صوت الآخرون لحزب كاحول–لفان والأحزاب التي على يساره، على الرغم من أن حزب كاحول لفان لم يطرح رؤية بديلة لليمين، بل أراد أن يكون يمينا بحسب ما صرح به يائير لبيد أحد قادة هذا الحزب «كل الأشياء التي كانت ميزت مرة اليمين الإسرائيلي».

الكتاب هو دعوة للتفكير والعمل، ففي الجولات الانتخابية الأربع الأخيرة اتضح أن «يمينا مسؤولا» هو ليس بديلا. كما أن الليبرالية في إسرائيل محسوبة على اليسار وهي أيضا لا تشكل بديلا حقيقيا، ولذلك يتطلب الأمر سياسة جديدة ومختلفة، ليس من السهل بناؤها، وليس من السهل إجراء تغيير جوهري من الأساس لطُرق العمل التي تم الاعتياد عليها، فالمسيرة طويلة ولا يوجد طرق مختصرة. وكتاب ما العمل الآن يريد المساهمة في هذه السيرورة.

اليمين المتطرف والليبرالية الجديدة

يدعي المؤلفان أن انتخاب دونالد ترامب لرئاسة الولايات المتحدة عام ٢٠١٦ لم يكن إلا تعبيرا دراماتيكيا عن توجه عالمي متواصل وواسع في صلبه رسوخ قوة اليمين الجديد، العنيف والعدواني، في عدد من الدول، مثل أميركا وروسيا والبرازيل وتركيا والهند وهنغاريا وبولندا. وفي الدول التي لا يحكم فيها اليمين المتطرف بعد، فهو آخذ في زيادة قوته، ويشكل تهديدا حقيقيا للحكم. والقاسم المشترك لأحزاب اليمين المتطرف هو القومجية المزوجة بعنصرية وسياسة تقدس القوة كحل للمشاكل الاجتماعية (خطابة حربية، طرد المهاجرين، قمع عنيف للمظاهرات ولمعارضي الأنظمة)، استبداد، وعدم مساواة في المسائل القومية وفي النوع الاجتماعي، وفي الطبقية الاجتماعية. والقاسم المشترك الإضافي هو أن هذه الأحزاب تحظى بدعم من قبل مجموعات اجتماعية متضررة من العولمة والليبرالية الجديدة.

يساهم المؤلفان بتعريف الليبرالية الجديدة وينتقدانها كونها تجعل من الإنسان عنصراً أنانياً لا يبغي إلا تحقيق الربح الشخصي، وتدعي أن الطريق الناجع لتوزيع الموارد وتقديم الخدمات في المجتمع هو السوق الخاص، الشيء الذي يؤدي إلى الخصخصة وتقليص التقنين وتحييد المجتمع وممثليه، ويمس بحقوق العمال ويقوي الشركات الكبرى والمؤسسات المالية، ويقوي حق الملكية للشركات على حساب الجمهور، ويؤدي لتقلص مصروفات الدولة الاجتماعية.

تتجلى العولمة الليبرالية الجديدة أيضا في إزالة المعيقات أمام رأس المال والسلع، وبنقل المصانع لأماكن يعمل به العمال بأجور منخفضة، وبنقل عمال ذوي أجور منخفضة لدول غنية.

تترك العولمة الليبرالية الجديدة بيئة من المتضررين، وتطرح أحزاب اليمين المتطرف الجديدة نفسها بشكل عام كمعارضة وكحامية للإنسان البسيط من نتائجها الصعبة. تختار هذه الأحزاب التركيز على موجات الهجرة التي تخلقها عولمة الليبرالية الجديدة. فهم يصفون المهاجرين واللاجئين بأنهم خطر على السكان المحليين البسطاء، كما أنهم يبررن القومجية وكراهية الأغراب من أجل دعم سيادة الشعب والديمقراطية.

والحقيقة أن اليمين المتطرف الجديد لا يحل المشاكل، بل يزيدها تعقيدا، ففي أماكن كثيرة تقيد الأنظمة الحقوق

تترك العولمة الليبرالية الجديدة بيئة من المتضررين، وتطرح أحزاب اليمين المتطرف الجديدة نفسها بشكل عام كمعارضة وكحامية للإنسان البسيط من نتائجها الصعبة. تختار هذه الأحزاب التركيز على موجات الهجرة التي تخلقها عولمة الليبرالية الجديدة. فهم يصفون المهاجرين واللاجئين بأنهم خطر على السكان المحليين البسطاء، كما أنهم يبررن القومجية وكراهية الأغراب من أجل دعم سيادة الشعب والديمقراطية.

السياسية، تستأنف على شرعية النقد والمعارضة، تعتدي على الأقليات والمهاجرين، وتلغي الترتيبات التي تحمي البيئة والصحة. والخلاصة إن اليمين المتطرف هو الذي يشكل الخطر المركزي والأكبر.

الى أين يجب الذهاب من هنا؟

قبل مائة عام، قالت المفكرة الثورية الألمانية روزا لوكسمبورغ، إن البشرية ستقف أمام خيارين، إمّا **الاشتراكية وإما البربرية**، والعصر الراهن، كما يبدو، هو عصر الولوج في البربرية. ففي بداية القرن الواحد والعشرين، يبدو أن الدمج الذي كان موجودا ونجح من قبل بين الليبرالية السياسية والرأسمالية الاقتصادية أخذ بالانتهاء لصالح بديل تتصاعد قوته باستمرار، ويتمثل بتقليص الديمقراطية وتنامي القومجية والعنصرية وزيادة الهبات والمستحقات لأصحاب رؤوس الأموال وتوسيع الفجوات بين أقلية غنية وأغلبية عاملة وفقيرة، وسحق جوهري للخدمات العامة.

وهذا التشخيص صحيح أيضا في إسرائيل، مع أن المسألة في الحالة الإسرائيلية تزداد تعقيدا نتيجة محاولة الدمج بين احتلال مستمر واقتصاد رأسمالي من جانب، وبين المحافظة على الحيز الديمقراطي النسبي داخل الخط الأخضر. والنتائج واضحة للعيان: إثارة العنصرية، ملاحقة الإعلام، شيطنة كل من تسول له نفسه إسماع صوت آخر، وفي الوقت نفسه، إزالة كل العقبات من أمام قلة من أصحاب رؤوس الأموال الذين يسيطرون على الموارد الطبيعية، مثل الغاز، وعلى الاقتصاد بمجمله.

يقول المؤلفان إن التغيير ممكن وضروري، فعلى سبيل المثال، ليس فوز ترامب قدرا مكتوبا، وإنما نتيجة غضب الأغلبية، ولأن الحلول والوعود الكاذبة التي تم طرحها لم تتنافس مع بديل معاكس تماما كالذي طرحه المرشح الاشتراكي بيرني ساندرس، الذي لم ينجح بالوصول إلى مقدمة المنافسة السياسية. ففي اللحظة التي لا يعرض بديل حقيقي من اليسار، بديل يطرح حلولا لكافة مشاكل المواطنين، ينتهز اليمين المتطرف الفرصة ليعرض حاله كبديل وحيد لفشل المؤسسات الحاكمة، ولذلك يفوز. فمن الضروري وضع بديل لصد اليمين المتطرف. يدعي المؤلفان أنه من الممكن طرح بديل جديد، وهذا البديل يجب ألا يكون عودة للنماذج التي تم تناولها في القرن العشرين كالاشتراكية الديمقراطية الأوروبية، وليس الشيوعية بشكلها السوفيتي، وإنما نموذج آخر يتقدم إلى نظام اجتماعي عادل وسليم أكثر.

يعرض الكتاب دروسا وعبرا من صعود اليمين المتطرف في إسرائيل والعالم، والعلاقة بين ذلك وبين ضعف اليسار. وبعد ذلك يعرضان بديلا للمنظومة الاجتماعية الاقتصادية القائمة، ورسم الأفق الذي يريدون الوصول إليه. كما يحاولان ترجمة ذلك للغة عملية، من خلال وضع أهداف عينية للنضال.

يدعي المؤلفان بأن بلورة حركة من أجل التغيير هي شرط من أجل تحقيق البديل في الواقع. وفي القسم الأخير من الكتاب يتعاطى المؤلفان مع هذا التحدي: الربط بين الأشخاص ومنظمات المجتمع المدني والقوى السياسية، بمقترحات تضامن مقابل الأنانية الليبرالية الجديدة الهدامة، وتعزيز التعاون بين مجموعات متعددة من المتضررين من الوضع القائم.

يؤكد المؤلفان بأنه يجب على الحركة التي تريد صنع التغيير عدم الخوف من الجماهير، بل العمل على أن تكون التعبير عنهم، يجب ألا تتنكر للهويات القومية، ولكن يجب ألا تتحصن بها أيضا، يجب أن يكون بها مكان لقيم العدل والمساواة اللذين مصدرهما الدين والتراث، يجب أن تحترم الهويات المختلفة وبذل الجهود لخلق جسور وتعاون بينها.

من أجل إجراء التغيير المطلوب، هنالك حاجة إلى حركة شعبية، وليس إلى مجموعة منطوية على ذاتها.

يؤكد المؤلفان بأنه يجب على الحركة التي تريد صنع التغيير عدم الخوف من الجماهير، بل العمل على أن تكون التعبير عنهم، يجب ألا تتنكر للهويات القومية، ولكن يجب ألا تتحصن بها أيضا، يجب أن يكون بها مكان لقيم العدل والمساواة اللذين مصدرهما الدين والتراث، يجب أن تحترم الهويات المختلفة وبذل الجهود لخلق جسور وتعاون بينها.

المسألة الإسرائيلية

هذا كتاب عن إسرائيل، على الرغم من أنه ينطبق على بعض الدول الأخرى التي تواجه واقعا اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا محبطا ومتشابها، بما فيها الدول الغنية والمتطورة.

إسرائيل دولة قوية من ناحية اقتصادية، وتحسب على مجموعة قليلة من الدول الغنية بحسب الكثير من المؤشرات والمقاييس الدولية (OECD، PPP، GDP) وعلى الرغم من ذلك، هنالك جوانب خاصة بإسرائيل، والسؤال: هل هنالك إمكانية لمجتمع متساو وعادل يعيش بسلام داخلي وبسلام مع دول الجوار؟ ويجيب المؤلفان بالإيجاب، ويعزوان تعثر الوصول إلى ذلك بعدم إيمان الأغلبية بإمكانية التقدم إلى ذلك، كما أنه توجد أقلية تريد لأسبابها الخاصة الإبقاء على الوضع القائم.

ينتج النظام الاقتصادي في إسرائيل إحباطات، ولكن هذه الاحباطات لا تتبلور إلى نشاط سياسي شامل، وتعبيرات المقاومة والرفض محلية ومنفصلة وتتواجد في جزر منعزلة عن بعضها البعض، حيث إنها لا تتحدى النظام القائم. والتعبير الأساسي عن الإحباط هو الامتناع عن الفعل السياسي. وهنالك أسباب عديدة لهذا الامتناع، كما أن اليأس يظهر من خلال الهجرة إلى الخارج، وتحقيق «الفردانية»، الشيء غير المتاح للجميع، أو الهجرة إلى الداخل؛ بمعنى الامتناع عن التداخل الاجتماعي واقتصار الإصلاح على «إصلاح الذات» فقط، وكأنه يمكن الفصل بين الأمرين.

وفي نهاية المطاف، يعبر اليأس عن نفسه بصور مروعة: خوف هستيري من «خراب البيت»، دعوة لهروب جماعي، أو التطرق بشكل ساخر لكل مؤسسة ولكل نشاط جماهيري، بذريعة «أن الكل نفس الشيء». اليأس لا يمكن من أحداث التغيير، كما أن الليبرالية الجديدة تسعى لعدم تسيّس الاقتصاد فاليأس يسعى لعدم تسيس المقاومة. وكما أن الليبرالية الجديدة تسعى إلى تفكيك الأطر الجماعية والتضامن وتستبدلها بفردانية ومنافسة، هكذا اليأس مبني على سلوك فردي، وليس على تعاون جماعي.

لماذا من الممكن، ولماذا يجب إحداث التغيير؟

في هذا الفصل الأول الذي كتبه دوف حنين ويحمل العنوان: لماذا من الممكن، ولماذا يجب إحداث التغيير؟ يتعرض الكاتب لمفاهيم الاحتجاج والنضال، ويربط بين الحملة التي قادها لرفع أجرة العمال في عام ٢٠١٤ وبين الاحتجاجات الشعبية التي انطلقت في إسرائيل عام ٢٠١١ تحت شعار «الشعب يريد العدل الاجتماعي»، والتي تزامنت مع الثورات في العالم العربي.

كما يشير الكاتب إلى ضرورة التعلم من تجارب أخرى (يورد تجربة المرشح الأميركي بيرني ساندرس)، وضرورة الربط بين الجمهور وبين المنتخبين وكيفية الضغط على الحكومة.

يصوب الكاتب نقده للرأسمالية ولليبرالية الجديدة التي تضر بالإنسان وبالبيئة وتسعى إلى زيادة الأرباح وإضعاف الديمقراطية وزيادة نفوذ رجال الأعمال الأغنياء في العالم، وازدياد الفجوات، كما يورد معطيات تدعم ذلك وتؤكده، إما من خلال إحصائيات ومؤشرات رقمية، وإما من خلال مناقشة ادعاءات المدافعين عن الرأسمالية والعولمة، كالصحافي توماس فريدمان، والباحث فرنسيس فوكوياما (صاحب مقولة «نهاية التاريخ»)، والباحث صموئيل هانتنجتون (صاحب مقولتي «صراع الحضارات» و«انموذج الحوكمة»)، والحاصل على جائزة نوبل في الاقتصاد جيري بيكر (الذي يقترح إلغاء المجال السياسي واستبداله بالفكر الاقتصادي وإحالته على جميع مجالات الحياة)، كما يعرض الكاتب الصراع الدائر بين الديمقراطية والحوكمة، وكيف أصبح ادعاء الحوكمة ذريعة بيد الحكام الشعبويين في العالم الذين يبغون إضعاف الأنظمة الديمقراطية.

لم ينجح اليسار في مقابل هذا الوضع في اقتراح بديل. لقد ساهمت أزمة الديمقراطية التمثيلية أيضا بصعود اليمين، حيث ضعفت الأحزاب السياسية شكلا ومضمونا ودورا، كما حصل تردّ كبير في مكانة الاتحادات المهنية في كل العالم (عدا الدول الإسكندنافية). في اللحظة التي قويت فيها مؤسسات فوق دولتيه مثل الاتحاد الأوروبي، شعر الكثير من الناس بحالة من الاغتراب، الشيء الذي ساعد قوى اليمين على اللعب على الوتر القومي.

الفصل الثاني: صعود اليمين المتطرف ومخاطره (داني فيلك)

الأسباب التي أدت إلى صعود أحزاب اليمين

يحاول داني فيلك في الفصل الثاني من الكتاب الإجابة على السؤال: ما هي الأسباب التي أدت إلى صعود أحزاب اليمين المتطرف؟ وخصوصا أن العالم في بدايات التسعينيات كان يتوقع عدم حدوث تغييرات اجتماعية نتيجة الوصول إلى «نهاية التاريخ»، وأن الديمقراطية الليبرالية الرأسمالية هي اللاعب الوحيد في الميدان.

يشير فيلك إلى أن الأسباب هي: زيادة التمييز والفجوات وعدم المساواة في الدولة، عدم الأمان نتيجة لضعف التضامن الاجتماعي، وتراجع دولة الرفاه نتيجة لتقليص ميزانيات الإنفاق العام والخصخصة، أزمة التمثيل السياسي، حيث تحول الجهاز السياسي من وسيط بين الدولة والمواطن إلى خادم فاسد يهتم بأصحاب الإمكانيات، عدم احترام الهويات الجماعية والتراث. إضافة إلى ذلك، حصل تراجع في قوة العمال واتحاداتهم وسرعة وحرية نقل رأس المال.

لم ينجح اليسار في مقابل هذا الوضع في اقتراح بديل. لقد ساهمت أزمة الديمقراطية التمثيلية أيضا بصعود اليمين، حيث ضعفت الأحزاب السياسية شكلا ومضمونا ودورا، كما حصل تردّ كبير في مكانة الاتحادات المهنية في كل العالم (عدا الدول الإسكندنافية). في اللحظة التي قويت فيها مؤسسات فوق دولتيه مثل الاتحاد الأوروبي، شعر الكثير من الناس بحالة من الاغتراب، الشيء الذي ساعد قوى اليمين على اللعب على الوتر القومي.

ماذا يمكن التعلم من أخطاء الماضي؟

من خلال الفصل الثالث الذي طرح السؤال: الاستدامة والاشتراكية: أين اخطأنا وماذا تعلمنا؟ الذي كتبه دوف حنين، يسرد الكاتب تطورات حركة الدفاع عن البيئة منذ القرن التاسع عشر، وارتباط – أو عدم ارتباط – جودة البيئة بالفكرة الاشتراكية، مبيناً رأي روزا لوكسمبورغ في الموضوع. كما يتوقف كثيرا عند مفهوم التنمية المستدامة ومصادرها الفكرية وجودة الحياة، مستعينا بتنظيرات المفكر الحاصل على جائزة نوبل امارتيا صن.

كما يجري الكاتب مراجعة ومحاسبة مقتضبة للفكرة الاشتراكية وتعثرها في القرن العشرين، مستعينا بأفكار لوكسمبورغ التي أكدت عدم وجود اشتراكية دون ديمقراطية. كما يستعرض الكاتب المأساة السوفيتية وصعود ستالين للحكم وقمعه للمعارضة، ومن ثم انهيار المعسكر الاشتراكي، الذي أتاح المجال للرأسمالية للاستبداد دون وجود بديل.

كما استعرض الكاتب المعيقات والتحولات التي واجهت الأحزاب الاشتراكية– الديمقراطية في القرن العشرين التي أجلت تفعيل الاشتراكية، وفي المقابل تبنت نظام الليبرالية الجديدة، وفي إسرائيل تجسد هذا الأمر عام ١٩٩٩ بممارسات رئيس الحكومة أيهود باراك، الذي تحدث عن تغيير سلم الأولويات والاستثمار بدولة الرفاه، ولكن عمليا تبنى سياسات الليبرالية الجديدة التي نفذها سابقه نتنياهو.

وفي الجانب السياسي، استمر حزب العمل بقيادة باراك في محاولات إنتاج معادلات «طريق ثالثة»، تتحدث من جانب عن السلام، وتنفذ من جانب آخر سياسات «أرض إسرائيل الكاملة»، الشيء الذي دفع باراك للتصريح بعدم وجود شريك فلسطيني، ما أفضى إلى تبني موقف اليمين، وصعّب التمييز بين اليمين واليسار، ومسّ بقدرة الاشتراكيين–الديمقراطيين على عرض أنفسهم كبديل.

ويخلص الكاتب إلى أن البديل للرأسمالية هو الاشتراكية الديمقراطية، حيث إنه دون ديمقراطية لا توجد اشتراكية، والحديث عن ديمقراطية الشعب والتحرر من حكم السوق إلى سياسة

التحكم بالذات والحصول على الحقوق وسياسة الرفاه. كما يؤكد الكاتب على ضرورة إحداث تغييرات في الحاضر وليس فقط في المستقبل البعيد. تتجلى هذه التغييرات بتقوية التقييدات على قدرات اقتصاد السوق بأحداث أضرار، وتحرير السياسة من سيطرة أصحاب رؤوس الأموال، وتفكيك المؤسسات الأبوية التي تتيح للرأسمالية استغلال النساء، وتفكيك المباني العنصرية التي توازي بين الاستغلال الطبقي وبين الانتماء الإثني.

الديمقراطية الاشتراكية في القرن الواحد والعشرين

يحاول الكاتب داني فيلك من خلال الفصل الرابع أن ينظّر لديمقراطية حقيقية كاملة وجوهرية ترتكز على ركيزتين أساسيتين، الركيزة الأولى: المساواة بين كافة المواطنين ومنح السيادة على الديمقراطية للشعب، ومنع أصحاب رؤوس الأموال من فرض سيطرتهم ونفوذهم، وتعزيز مشاركة الشعب في عملية اتخاذ القرارات والإدارة. والركيزة الثانية: التضامن الاجتماعي، وهذا ما يعتبره الكاتب الديمقراطية الاشتراكية، والتي يبغي تحقيقها، منتقدا المشككين والمستهزئين.

خمس استراتيجيات للتغيير

في الجزء الخامس، والذي يحمل عنوان «من الرفض إلى التغيير: التوجهات المتنوعة للتعامل مع النظام الاجتماعي»، يستعرض داني فيلك خمس استراتيجيات للتغيير موضحا إيجابيات وسلبيات كل واحدة منهن: إستراتيجية الاكتفاء بالرفض، إستراتيجية انتظار اللحظة المناسبة، إستراتيجية الدافع السياسي، إستراتيجية تغيير الخطاب، والإستراتيجية الأخيرة إستراتيجية النضال ضد الهيمنة والتي طورها أنطونيو غرامشي.

يحاول دوف حنين من خلال الفصل السادس أن يتواصل مع مضمون الفصل السابق، والإجابة على السؤالين: هل من الممكن ان تقوم في الواقع الإسرائيلي حركة ناجعة تهدف إلى التغيير الاجتماعي والسياسي؟ وهل من الممكن تحدي المشروع المهيمن؟ يجيب حنين على السؤالين بإيجاب من خلال سرد مسهب ومفصل لبعض الحراكات والنضالات التي تتعارض مع المشروع المهيمن، مثل احتجاجات المهاجرين الأفارقة المطالبين باللجوء، احتجاجات الشرقيين اليهود، بعض نضالات المجتمع العربي ودور الجبهة والحزب الشيوعي، المظاهرات ضد الحرب في لبنان، نضالات في مجال جودة البيئة، حملة (بلد للجميع) وخوض حنين نفسه الانتخابات لرئاسة بلدية تل أبيب، الاحتجاجات الاجتماعية عام ٢٠١١. يشير حنين أن القاسم المشترك لمجمل النضالات هو مشاركة الشباب، كون الحراكات فوق حزبية، رؤية إمكانية التغيير. وفي رأيه أن النضالات نجحت لأنها تركزت في نقاط ضعف الجهاز المهيمن، ولأنه كلما اتضحت الرؤيا كلما ازدادت القوى الداعمة.

أما الفصول من السابع حتى الثاني عشر، والتي لا يمكن استعراضها بتوسع في هذا السياق لما تفرضه المساحة المخصصة لمراجعة الكتب، فقد كتبت من قبل الكاتبين معا، وتطرقا في الفصلين السابع والثامن إلى إمكانيات التغيير في واقع صراع قومي، وموقع إسرائيل في المنطقة ورؤيتهم لحل الصراع من خلال إيجاد مكان للجميع وتحقيق العدل والاستقلال للشعبين.

كما يطمح المؤلفان لاقتراح بديل سياسي لليأس عن طريق تحدي النظام الليبرالي الجديد، والنضال من أجل مجتمع المساواة والعدل، ويقترحان من خلال الفصل التاسع سلسلة من الإصلاحات في مجالات متعددة كالصحة والتربية والزراعة والعمل والأرض والاقتصاد والاستثمار ...إلخ من أجل تحقيق ذلك.

أما في الفصول العاشر حتى الثاني عشر فقد قدما أفكارا وإستراتيجيات ونصائح لتنفيذ التغيير من خلال بناء حركة شعبية واقتراح عشرة أعمال من أجل التأثير : عدم التسليم للظلم وتعزيز التضامن، تحرير الخيال والتفكير خارج الصندوق، التنظم وأهمية العمل الجماعي، الربط بين النضالات والمقاومات والمبادرات، تقديم وحدة المختلفين من أجل التغيير، تعلم الحديث مع الناس وتوسيع الدائرة، استخدام الحيز العام ووسائل التواصل الاجتماعي، تفعيل السياسيين، تحديد أهداف والاحتفال بالإنجازات، خلق جمهور واسع وتفعيله.

خاتمة

يقول فيلك وحنين إنه في عالم القرن الواحد والعشرين، عاد التحدي الاشتراكي ليكون راهنًا، بل مُلح. وليس هذا رؤيا لمستقبل بعيد، بل مهام لنضال هنا والآن. يتمظهر بنضال متواصل داخل الواقع الذي نعيش فيه، بما يشمل نضالا من أجل إنجازات عينية ومحددة، ولكن ذلك لا يكفي.

تسعى السيرورات التي يقترحها الكتاب إلى إحداث تغيير ديمقراطي كبير، لمجتمع عادل، مستدام ومتضامن أكثر يعيش بسلام في حيز الشرق الأوسط ومحيط البحر المتوسط. إن النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي القائم قابل للانكسار أكثر مما نتخيل. يتميز التطور التاريخي أيضا بحالات هبوط وبقفزات، وهذه هي الأوضاع التي يجب معرفة كيفية التعامل معها، ويجب معرفة كيفية استخدامها من أجل تقديم تغيير إيجابي ومهم أكثر. ويؤكد الكاتبان أنه «يجب ألا نخضع للمتشائمين الذين يكرسون الموجود وللتوجهات التي تدعي أن الحرب والفقر والفجوات الكبيرة والاضطهاد هي شيء حتمي، لسنا ملزمين بقبول الادعاءات أن الإنسان دائما أناني، وأنه يجب التغلب على الآخرين لكي لا يتغلبوا علينا كحقيقة».

أعتقد أن الكتاب يقدم مساهمة مهمة في قراءة وتشخيص الوضع العالمي وربطه بالواقع الإسرائيلي، مع أخذ الخصوصية الإسرائيلية بعين الاعتبار، ممثلة بتركيبة المجتمع وبالاحتلال الاستيطاني، بالإضافة إلى ذلك، يجتهد في الربط بين النظرية والأفكار من جهة، وتطبيقها في الواقع من جهة أخرى، ويسعى إلى بناء تحالفات بين مجموعات متنوعة، ويؤكد على ضرورة الشراكة العربية اليهودية وتحويل المواجهة بدل بين عرب مقابل يهود إلى مواطنين ضد أصحاب رؤوس الأموال وضد المستوطنين (مع احترام الهويات القومية واستثمارها)، ولكن باعتقادي هذا التوجه على الرغم من أنه يضع الفكر الاشتراكي في المركز كبديل، إلا أنه يبقى في إطار الأنموذج القائم ولا يتحدى مسألة تراجع خيار حل الدولتين، ولا يتعمق في دراسة وتحليل الصراع القومي بما فيه الكافية، بل يتناوله بشكل مقتضب، وأحيانا في بعض القضايا العينية فيما يخص المجتمع الفلسطيني في الداخل، كما أنه لا يتعاطى مع الظاهرة الدينية وتجلياتها في الواقع سوى من خلال استثمار أبعادها الأخلاقية في تعزيز الخيار الاشتراكي، ولا يخوض بالصعوبات الجمة التي تعترض عملية بناء التحالفات بين المجموعات التي لها مصالح مختلفة بشكل مطلق، ومتناقضة في أحيانا مختلفة، ولها سرديات وروايات تنفي إحداها الأخرى. كما أنه لا يتعاطى مع بدائل فكرية أخرى عدا الاشتراكية التي تتحدى النظام الليبرالي الجديد والعولمة والحداثة. وليس بالضرورة أن تكون إنجازات النضالات العينية تحولا سياسيا واجتماعيا كبيرا حتى لو تم تحليل وتجريد هذه النضالات وإجراء تفكير استراتيجي وتحرير الخيال الاجتماعي والسياسي.